نهج البلاغة رافــداً ابداعياً في شعر المتنبي

(٣٠٣ هــ _ ٣٥٤هــ)

أ.م.د. أنوار سعيد جواد

أ.م.د. بشرى حنون محسن

ملخص البحث

حظي المتنبي وشعره بالعديد من المؤلفات والدراسات والبحوث منذ ظهوره شاعرا سطع نجمه في سماء الشعر العربي في العصر العباسي؛ وعلى وجه التحديد في القرن الرابع الهجري وإلى يومنا هذا؛ فما زال شعره محط أنظار الباحثين والدارسين لما يمتلك نصه الشعري من رؤى ابداعية؛ وخصائص فنية؛ وسمات جمالية مازالت معينا لا ينضب للدارسين والباحثين عنها .

ولعل مرجع ذلك إلى ان نص المتنبي الشعري نصٌ عميق الغور بعيد المرمى يحمل كثيراً من التجليات والأسرار التي تدفع بالقارئ أو المتلقي إلى سبر هذا الغور والوقوف عند ابعاده ومرأمية.

وقارئ حياة المتنبي وشعره يدرك مدى العلاقة التي تربط الشاعر ونصه الشعري بتراثه الانساني وما يحمله من فكر و قيم ومبادئ ومُثل؛ وكذلك اطلاعه الواسع على المعارف السائدة في عصره وقبل عصره. كل ذلك أسهم في خلق نص ثري من العلاقات والتراكمات المعرفية لهذا المبدع؛ فكانت بمثابة الروافد التي تمد بحر عطائه الشعري.

ومن هنا كان المبدع؛ ومن ثم نصه الابداعي أو الشعري بناءً متعددَ القيم والأصوات، يتوارى خلف كل نص أصوات متعددة أخرى غير صوت الشاعر، ومن هذه الأصوات صوت الإمام علي (عليه السلام) الذي يعد رافدا ابداعيا من روافد شعر المتنبي التي اسهمت في اثراء موهبته الشعرية؛ وهذا ما يتضح من العلاقات القائمة بين نصوص شعر المتنبي ونصوص من نهج البلاغة الذي يعد مصدرا خصبا وثريا بالالفاظ الجزلة والمعاني العميقة والرؤية الابداعية في سبر أغوار الحياة بكل أشكالها ومعانيها، وهنا يكمن ابداع المتنبي في توظيفه لهذه النصوص ومحاولته طبعها بطابعه الخاص وذلك من خلال اضفاء شحنات دلالية خاصة يعبر من خلالها الشاعر عن رؤاه الشعرية؛ فضلا عما يكشف من خلالها عن غنى هذه التجربة الثقافية التي يمتلكها إلى جانب انفتاحه الرحب على مختلف الثقافات ومحاولته الافادة منها في اثراء نصه الشعري؛ إلى جانب ما يكشفه هذا التعامل مع نصوص من نهج البلاغة من براعة في التناول والأخذ والتأثر. وهذا ماسيحاول البحث تناوله من خلال الوقوف عند استيحاء المتنبي لنصوص الامام علي (عليه السلام) التي وردت فيما بعد في نهج البلاغة وتوظيفها في شعره؛ سواء ما يتعلق بألفاظه أم بمعانيه راسمة بذلك صوره الشعرية المتميزة .

المقدمة

لعل من الأمور التي باتت من المسلمات أو البديهيات في دراسة المتنبي وشعره ؛ أنه رجل يتمتع بثقافة عالية وسعة اطلاع كبيرة؛ يشهد له بذلك كثيراً من النقاد والدارسين لشعره قديما وحديثا؛ ولا أدَّل على ذلك من كتب السرقات التي ظهرت منذ ظهوره شاعرا متميزا سطع نجمه في سماء الشعراء المبدعين في عصره وإلى يومنا هذا. فمازالت الدراسات والبحوث تنهل من فيض عطائه الشعري من خلال سبر غور نصوصه

الابداعية والوقوف عند عبقريته الشعرية ومدى ابداعه؛ فضلا عن اصالته الشعرية ((بشرط أن لا نفهم الأصالة _ بالضرورة _ على انها تجديدات شكلية أو مضمونية فقط، بل مفاهيم جديدة، أو تكوينات جديدة أيضا، تعتمد فيما تعتمد من الناحية المضمونية والتشكيلية على نماذج سالفة))[١].

ومن هذه النماذج السالفة نصوص الامام علي (عليه السلام) التي حملها التاريخ بين دفتيه حتى عصر الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) ليجمعها في (نهج البلاغة). وهذا ما يؤكده المسعودي (ت ٣٤٦هـ) عند ذكره للإمام علي (عليه السلام): ((لم يلبس عليه السلام في ايامه ثوبا جديدا، ولا اقتنى ضيعة ولا ربعة..... والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة، وتداول الناس ذلك عنه قولا وعملا.))[٢].

وهذا النص انما يؤكد حقيقة مفادها ان كلامه (عليه السلام) كان معروفا ومتداولا بين الناس قبل الشريف الرضي؛ هذا من جانب ومن جانب آخر ان ماوصلنا من كلامه (عليه السلام) أقل بكثير مما ورد ذكره وجُمِعَ في (نهج البلاغة).

غير انَّ ما يعنينا من بحثنا هذا هو كيف أفاد المتنبي من كلام الإمام (عليه السلام)؟ وكيف وظف ذلك في بحر عطائه الشعري؟

ومعلوم إنَّ كلامه (عليه السلام) فتح بابا مشرعة وواسعة أمام العلماء والأدباء والشعراء بما حملته نصوصه وخطبه وأقواله من جوانب معرفية وآفاق رحبة في مجال العلم والمعرفة إلى جانب الصياغة الفنية البارعة والمتميزة؛ فكان أن أخذ الشعراء منها ونهلوا من نبعها العذب الصافي؛ ومنهم شاعرنا المتنبي، حيث شكلت نصوصه ومعانية وأقواله رافدا من روافد ابداعه الشعري.

_المبحث الأول:إفادة المتنبي من ألفاظ الإمام علي (عليه السلام):

ليس بخافٍ على قارئ حياة المتنبي شغف الأخير بالمطالعة وحبه للقراءة واطلاعه على آثار مَنْ سبقه منذ طفولته حتى سطوع نجمه شاعرا له بصماته المميزة في عالم الشعر والابداع فيه؛ فقد ((تعلم الكتابة والقراءة فلزم أهل العلم والأدب، وأكثر من ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم))[٣]. ويتضح هذا العلم بشكل أو بآخر في نتاجه الابداعي؛ وفي قدرته على توظيف هذا الثراء المعرفي في شعره؛ ولعل نصوص الامام علي (ع) واحدة من تلك العلوم والمعارف التي ترسبت في ذهن المتنبي واختزنتها ذاكرته الشعرية، فاذا ما أراد أن ينظم بيتـــــــــاً ((دفعت حافظة المرء على لسانه بعض ما ترسب منها مما وعاه لغيره، واختزنه لسواه))[٤]، وهذا ما نستطيع أن نلحظه في قول المتنبي:

((وَلَذِيْذُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْـــ ـــسِ وَأَشْهَى من أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى))[٥]

حيث يذكر شارح ديوانه في معنى هذا البيت: ((الحياة لاتمل؛ وهي أعز وأحلى من أن يملها صاحبها))[٦]والمتتبع لكلام الامام علي (ع) في نهج البلاغة يلحظ كيف أفاد الشاعر من الفاظ الإمام (ع) ووظفها في المعنى نفسه الذي جيئت به ووردت فيه؛ حيث يقول (ع): ((**وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلَّهُ إلاَّ ٱلْحَيَاةَ**))[٧]

فقد أخذ المتنبي لفظة الملل والحياة ووظفها في الاطار ذاته الذي ورد في نص الامام (ع)السابق؛ حيث تشرب المتنبي نص الامام واعاد صياغته من خلال استعمال اسلوب التقديم والتأخير في بعض الألفاظ مما يكشف عن قدرته في تطويع النصوص وإعادة تشكيلها بما يتلاءم وموهبته الشعرية .

وفي موقف آخر عندما يتحدث عن طول الأمل في مقابل قصر الأجل؛ وان الذي يذهب من عمر المرء لايعود؛ حيث يقول :

((**وَمَا مَاضِي الشَّبَابِ بِمُسْتَّرَدّ وَ لا يَـوْمٌ يَـمُرُّ بِمُسْتَعَـادِ**))[٨]

فاننا نلحـــظ أثر قول الإمـــام علي (ع) وألفاظه وذلك في احدى خطـــبه التي فيها مواعـــظ للناس؛حيث جـــاء فيها: ((**لاَجَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ**))[٩].

حيث أفاد المتنبي من لفظتي (الردّ ، والماضي) وأعاد توظيفهما بما يخدم تجربته الشعرية وابداعه الفني، بمعنى آخر انه أعاد صياغة النص القديم وفق معطيات الحدث التاريخي والنسق الابداعي ليتحول إلى نص جديد. ذلك ان المتنبي إنما ((يحاول أن يجد طريقه في خضم الزخم التقليدي الاحيائي ويجعل توظيفه للموروث القديم ..... من أجل الخروج برؤية جديدة تواكب روح عصره وتعكس قضايا جوهرية لدى الانسانية المعاصرة له))[١٠]. وهذا ما سبق أن ادركه العكبري شارح ديوانه عندما وقف عند قوله في مدح سيف الدولة الحمداني :

((**كُلٌّ يُرِيْدُ رِجَالَهُ لِحَيَاتِهِ يَا مَنْ يُرِيْدُ حَيَاتَهُ لِرِجَالِهِ**))[١١]

حيث يقول شارحا: ((يريد ان الملوك سواك يطلبون عسكرهم وجنودهم، ليدافعوا عنهم ويجمعونهم على اعدائهم ليسلموا، وأنت تريد رجالك أن يبقوا ويسلموا، وتدافع عنهم، وهذا غاية الكرم والشجاعة. وقد بنى البيت على حكاية تذكر عن سيف الدولة مع الاخشيد.....يقول له: قد جمعت هذا الجيش، وجئت إلى بلادي، ابرز إليَّ ولاتقتل الناس بيني وبينك، فأينا غلب أخذ البلاد وملك أهلها .....وقد رُويَ مثل هذا عن عليّ عليه السلام: أنه بعث إلى معاوية، وهما بصفين: قد فني الناس بيني وبينك، فابرز إليَّ، فأينا قتل صاحبه ملك الناس .....))[١٢]. يتضح مما تقدم كيف أفاد المتنبي من تشابه الحدث التاريخي الموروث وقدرته على توظيفه في نسق شعري يبرز من خلاله قدرته الابداعية واصالته في ((أن يطوع هذا التراث في خدمة فنه دون أن يفنى فيه، فالاتكاء على التراث لاينفي عظمة الشاعر ولا يعني أن يتحول الشاعر إلى نسخة مكررة عن الآخرين، إذ لابد من فنه وشخصيته على ماهو بصدد الأخذ منه))[١٣].

وفي موضع آخر نلحظ كيف أفاد المتنبي من ألفاظ ونصوص الإمام علي (ع) ووظفها في خدمة غرضه الشعري وفنه الابداعي مستفيدا من وحدة الموضوع والغاية التي من أجلها بُنيَّ النص، فاذا كان الامام علي (ع) قد قال بعد تلاوته قوله تعالى: ((**أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ¤ حَتَّى زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ**))[١٤] في كلام له في حال الدنيا والآخرة وما ستؤول إليه الأشياء من الفناء؛ حيث يقول واصفا حال الدنيا: ((..... **تَطَأُونَ فِي هَامِهِم، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيْمَا لَفِظُوْا** ....))[١٥].نجد إنَّ المتنبي يقوم باستيعاب هذا التراث من خلال جمعه بين ((تجاربه وتجارب القدماء، ويستغل قدراته في معالجة كل ماهو موروث؛ واخراجه بشكل جديد يناسب عصره))[١٦] والحدث الذي ينظم فيه؛ ففي معرض رثائه لوالدة سيف الدولة الحمداني يفيد المتنبي من هذا الرافد المتدفق المعطاء في رسم صورته الشعرية؛ حيث يقول:

((**يُدَفِّنُ بَعْضَنَا بَعْضاً وَ يَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأَوَالِي**))[١٧]

فإذا كان الامام علي (ع) قد قال (تطأون في هامهم) فان المتنبي قال (تمشي أواخرنا على هام الأوالي) ويتضح كيف افاد المتنبي من الفاظ الإمام علي (ع) ووظفها في نصه وذلك من خلال التضمين. لقد كان المتنبي على وعي وإدراك تام بظاهرة التأثر والافادة من تراث الآخرين ولاسيما وهو يدرك تمام الإدراك إنَّ الألفاظ مشتركة بين بني البشر هذا ماسبق ان اشار إليه في معرض اتهامه بالسرقة؛ حيث قال: ((**أما ما نعيته عليَّ من السَّرق فما يدريك أني اعتمدته وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض، وآخذ بعضه من بعض، والمعاني تعتلج في الصدور وتخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى؛ والألفاظ مشتركة مباحة**))[١٨].وهذا ما نستطيع أن نتلمسه أيضا من قوله :

((**وكُــلُّ أُنَاسٍ يَتْبَعُونَ إمامَهُم وَأَنْتَ لأهل المَكْرُمَاتِ إِمَامُ**))[١٩]

الذي استقى بيته من قول الامام (ع): ((**أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوْمٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِعِلْمِهِ**))[٢٠]ففيه تظهر براعة المتنبي وقدرته على ((تمثيل كل ما لقيه ووقع عليه ما دام مسايرا لوجهته؛ مصورا لفكرته))[٢١] ويظهر هذاالتمثل في استعمال لفظة (الإمام)؛ وإذا كان الإمام علي (ع) قد قال: (لكل مأموم) فان المتنبي قال : (كل أُناس) وما ذلك إلاّ لقدرته الابداعية وهو مَنْ نعلم بتبحره في اللغة وتبصره بدقائقها ومفرداتها حتى وصف بانه ((ضليع في اللغة بصير بالفلسفة خبير بالآداب))[٢٢]. فلم يقتصر نهل المتنبي من معين الإمام علي (ع) في جانب الحكمة والمعاني الانسانية والخلقية وحسب وإنما أشرك فيهاالألفاظ؛ وان حاول ان يصوغها بشكل يتلاءم ومنهجه الشعري.الا ان الرافد الذي استقى منه يكاد يكون واضحا وجليا لدى القارئ و المتلقي . على ان هذا لا يعد عيبا ولا ثلبا في شعر المتنبي ولا قدحا في شاعريته بقدر ما يشير إلى اختلاط هذه المعارف في نفسيته وامتزاجها ((بكيانه؛ فغدت كما لو كانت عصارة فكره وخلاصة تجربته))[٢٣]. وهذا ما يكشف لنا عن عبقريته واصالته وتفرده بين شعراء عصره وابناء زمانه وإلى يومنا هذا. ذلك انه رجل عُرِفَ عنه حبه للقراءة وشغفه بالبحث عن الحكمة يسعى لها حيثما وجدها؛ فهي ضالته الأثيرة التي ماانفكت اشعاره تصدح بها؛ غير ان ما يميزها انها لم تأتِ بشكل مباشر وتقريري ملحوظ وإنما

تكمن في قدرته على توظيفها في خدمة الغرض الذي يتناوله فجاءت متلائمة ومتناسقة مع النسق الشعري الذي تميز به. ومن هنا نجد كيف انه أفاد من ألفاظ الإمام علي (ع) ونصوصه الخصبة بكل الالفاظ والمعاني الانسانية التي كانت موضع اهتمامه _ وإن لم يصرح بذلك _ فكان أن وظفها خير توظيف في شعره لما وجد فيها من تشابه وتقارب بين حياته وحياة الامام سلام الله عليه وما شهده عصره من نزاعات وصراعات أدت به للحديث عن كوامن النفس البشرية وخباياها؛ فكانت الأفكار التي طرحها أقرب إلى الواقعية منها إلى أي عنوانات أخرى جاءت مكسوة بالفاظ معبرة تشع منها الحياة في كل جانب من جوانبها وكل دال من مدلولاتها. وهذا ماتميزت به الفاظ الامام علي (ع) ونصوصه وخطبه .

_ المبحث الثاني: افادة المتنبي وتأثره بمعاني الإمام علي (عليه السلام) :

مما لا يخفى عن قارىء ترجمة المتنبي وحياته أنَّ مولده كان ((بالكوفة؛ في محلة تعرف بكندة..... واختلف إلى كتَّاب فيه أولاد أشراف الكوفة؛ فكان يتعلّم دروس العلوية لغة وشعرا وإعرابا فنشأ في خير حاضرة))[٢٤] وهذا النص انما يسلط الضوء على التراث المعرفي والثقافي لهذا الشاعر منذ أيام طفولته وصباه، وإنَّه اغترف من معين الكوفة الثقافي ومن (دروس العلوية) المعرفي، فكان أن تمثلها في ذهنه وتشربها في مخزونه الفكري فكان أن تسربت بشكل أو بآخر في نتاجه الشعري وعمله الابداعي، فمنها ما جاء بشكل مباشر وعن وعي من الشاعر بالمنهل الذي استقى منه والمعين الذي اغترف منه؛ وهذا ما سبق أن وقفنا عنده في تأثر المتنبي بألفاظ الإمام الواردة في نصوصه المجموعة في كتاب (نهج البلاغة) التي لا يشك باحث أو مطلع على حياة المتنبي وولعه بالعلم والمعرفة من الاطلاع عليها والتأثر بها ولاسيما ونحن نقرأ النص المتقدم الذي يلوح بشكل واضح فيها اطلاع المتنبي على أقوال الامام علي (ع) وتشربه اياها منذ طفولته وصباه ؛ وانه نشأ عليها.

وقد يكون هذا التأثر يأخذ منحىً جديدا عندما يريد أن ينظم الشاعر في غرض معين أو موقف محدد نرى ان هذا المعين الذي سبق أن نهل منه حاضرا في ذاكرته الشعرية فيستحضره بشكل غير مباشر أو عن طريق اللاوعي _ إن جاز لنا التعبير_ فنراه يعبر عن تلك المعاني باسلوبه وطريقته المميزة من غيره؛ تشفعه في ذلك قدرته على الحفظ وهذا ما تؤكده المصادر؛ حيث يشير الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب إلى ذلك في قوله: ((وقد منح المتنبي حافظة قوية أثارت فضول الناس واعجابهم فقد ذكر الرواة عنه أنهم لم يروا أحفظ منه. وأنه حفظ كتابا نحو ثلاثين ورقة من نظرته الأولى إليه))[٢٥] وهذا انما يكشف لنا عن اصالة الأعمال الفنية والشعرية التي قدمها المتنبي في زمانه وبعد زمانه وإلى يومنا هذا.وهو في كل ذلك إنما يستعين بنماذج سالفيه ومنها نصوص الامام علي (ع) وأقواله التي فتحت له ولغيره من الادباء والشعراء والكتّاب أفاقا علمية وأدبية واسعة أفاد منها الجميع وتأثروا بها فكانت لهم بمثابة النبع العذب الصافي الذي استقوا من معانيه وارتشفوا من الفاظه فظهرت في نتاجاتهم الابداعية موارده العذبة؛ ومنهم شاعرنا المتنبي على ان هذا لايعني تقليده لنصوص الامام علي (ع) ومعانيه بقدر ما يعني تأثره بها وهذا التأثير نعني به كما يقول أولدريج: ((شيء يوجد في عمل مؤلف ما؛ ما كان ليوجد فيه لو لم يقرأ المؤلف عمل مؤلف سابق))[٢٦].

وهذا ما تكشفه نصوص المتنبي الشعرية التي حملت بين طياتها كثيراً من المعاني التي تكشف عن تأثره بنصوص الامام علي (ع) ومعانيه ونهله من ينبوعه العذب الصافي؛ فكانت بحق رافدا معرفيا وابداعيا يضاف إلى روافد ابداعه الأخرى الناجمة عن كثرة اطلاعه وتأثره بالعلوم والمعارف المختلفة التي سادت عصره وقبل عصره؛ ذلك ان من الامور المسلم بها ان ((طبيعة العلم تأبى الاّ التسرب والانتشار))[٢٧] ونستطيع أن نتلمس ذلك من خلال الوقوف عند المعاني الشعرية لنصوصه الابداعية ؛ منها قوله :

((**الرَّأيُّ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشّجْعَانِ هَوَ أَوَّل وَهْيَ المَحَلُ الثَّانِي**))[٢٨]

حيث ندرك عبقرية المتنبي وبراعته في توظيف نص الامام علي (ع) الذي يقول فيه : ((**رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ جَلَدِ ٱلْغُلَامِ**))[٢٩]، الذي يرى فيه أهمية العقل متمثلا باستخدام لفظة (الرأي) في توجيه حركة الانسان كونه مصدر القرار وبه يحكم على الانسان بالحكمة والتروي أو الطيش والتهور. وهذا ماادركه المتنبي فما كان منه الا ان عمل على تطويع النص وجعله يحمل سماته الشعرية الخاصة التي تعبر عن رؤاه الشعرية وذلك من خلال جمالية الصياغة وروعة الاسلوب مما أسهم في شهرة البيت وذيوعه .

ومن تجليات التداخلات النصية بين نصوص المتنبي ونصوص الامام علي (ع) أيضا قوله :

((**إذا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا**))[٣٠]

إذ يكشف هذا النص خصائص ومميزات النفس التي يتمتع بها كل من الكريم واللئيم في حالة الاحسان والإكرام إليها؛ ذلك ان الكريم ((يصير كالمملوك لك إذا اكرمته؛ واللئيم إذا اكرمته يزيد عتوا وجراءة عليك))[٣١]وهذا المعنى سبق أن ذكره الإمام علي (عليه السلام) عندما قال: ((**ٱحْذَرُوْا صَوْلَةَ ٱلْكَرِيْمِ إِذَا جَاعَ، وَٱللَّئِيْمِ إِذَا شَبِعَ**))[٣٢].

وهذا التداخل في النصوص إنما يكشف لنا عن غنى تجربة المتنبي الابداعية وعن براعته في التعامل مع النصوص، ومحاولة تذويبها في نسقه الشعري المميز الذي يكشف من خلاله عن عبقريته وابداعه في فهم اسرار النفس البشرية .

ولا يبعد عن ذلك أيضا بيته المشهور :

((**بِذَا قَضَتِ الأَيَّامُ مَا بينَ أهلها مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ**))[٣٣]

وهو من الأبيات الشائعة والمتداولة في عصره وإلى يومنا هذا لما يحمله من حكمة ومعنى انساني متحقق على مر الايام ومدى الزمان فمن ((عادة الأيام سرور قوم باساءة آخرين))[٣٤]والبيت من قصيدة قالها في مدح سيف الدولة ورثاء ابن عمه تغلب؛ وإذا ما رجعنا إلى تراثنا الانساني نقرأ ونبحث في ثناياه عن مضمون هذه الحكمة ونتتبع مجريات الظروف التاريخية للنص الإبداعي للمتنبي نلمس التشابه الكبير بينه وبين نص الامام (ع) الذي قاله بعدما قُتِلَ محمد بن أبي بكر: ((**إِنَ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَىْ قَدَر سرورِهْم بِهِ؛ إلاَّ**

أَنَّهُم نَقَصُوْا بَغْيْضا وَنَقْصنَا حَبيْبَا))[٣٥]والذي جاء مخاطبا فيه أهل الشام.راسما بذلك صورة متناقضة لحالة الحزن الذي عم معسكر الامام في مقابل حالة السرور الذي عم معسكر العدو تجاه فقدان شخصية أثرت في كلا المعسكرين؛ فكان ان نقصوا بغيضا في حين نقص الآخر حبيبا؛ فالنقصان واحد لكن بمشاعر متباينة؛ وهذه حال الأيام ففي كل لحظة تمر ينقص شخص ويولد آخر؛ وهذا ما أدركه المتنبي في نص الامام علي (ع) وافاد من معناه في صياغة نموذجه الشعري؛ فكان نصه يسير بمحاذاة نص الامام جمالاً وابداعاً؛ ذلك ان ما يميز حكم المتنبي هو اعتمادها الموروث الانساني والاصل التاريخي إلى جانب انها ((تدور على حقائق ثابتة مشتركة بين الناس كلهم))[٣٦]؛ هذا ما سبق أن أشار إليه محمود محمد شاكر عندما قال عن حكمه: ((لم يكن قلبه ينسى شيئا أو يفلته؛ وكأني به _ وهو يقول البيت السائر والمثل الشرود _ كانت تتراءى تحت عينيه، ويدوي في مسمعه، كل ما مر به مما أثر فيه، فيقول البيت وفي كل لفظة منه سبب ممدود إلى ذكرى يذكرها أو فكرة يتخيلها))[٣٧]

لقد استثمر المتنبي ظرف الحدث التاريخي والإبداعي في التعبير عن شعوره وأفكاره وتقديم ذلك على وفق نسق شعري يظهر من خلاله قدرته الابداعية في تعامله مع النصوص، وذلك من خلال هدم النص ومن ثم إعادة تشكيله وبنائه بما يخدم موهبته الشعرية وقدراته الابداعية؛ وهذا ما يمكن تلمسه في قوله (مصائب قوم) التي تقابلها في نص الامام (حزننا عليه) و(فوائد) تقابل (وسرورهم به) إلى جانب استعماله اسلوب الايجاز في التعبير؛ ولا يخفى ما للفظة (مصائب) من وقع نفسي يشير إلى الاحساس بالفقد والحرمان ولاسيما اذا كان المفقود عزيزا وما يخلفه في نفوس محبيه من ألم المصاب ولوعته، في مقابل ما يحصده الأعداء من فائدة وما يستشعروه من سرور لتخلصهم منه وابتعاده عنهم. وكأن المتنبي يتمثل معنى الامام علي (ع) في نصه ويستحضره في مخيلته وهو ينظم شعره وهذا يتضح من خلال ما حمَّل النص من شحنات دلالية كبيرة كانت كفيلة بجعل القاريء أو المتلقي يبعد في الغوص في أعماق النص للوقوف عند حقيقة النص المتأثر من النص المؤثر.

ولا نعدو بعيدا ونحن نقرأ قول الإمام علي (ع): ((**المَعْرُوفُ كَنْزٌ فَانْظرْ عِنْدَ مَنْ تُودِعَهُ**))[٣٨] الذي يشير فيه إلى ضرورة الحكمة في معالجة الأمور والقضايا؛ وان الخير والمعروف لابد أن يوضعان في محلهما ليتبين فضلهما؛ فكان أن شبههما بالكنز الذي يعرفه أصحابه ويقدروا قيمته؛ فكذلك المعروف لايعرفه إلاَّ اصحابه ولا يعرف فضله إلا أهله؛ أما إذا وضِع في غير محله وعند غير أهله فقد أضرَّ به؛ وهذا إنما يشير إلى ضرورة وضع الامور في نصابها الصحيح ؛ فلا يجوز استعمال المعروف إلاَّ مع أهله ومستحقيه والعكس أيضا. وهذا معنى قرآني سبق أن أشارت إليه الآية الكريمة ((**هَلْ جَزَاءُ ٱلإحْسَانِ إلاَّ الإحْسَانُ**))[٣٩]. فما كان من المتنبي إلاَّ أن تشَّرب المعنى وأعاد توظيفه في نصه بما يخدم الغرض الذي يلائمه فكان أن وسع من ألفاظه؛ وكأنه يشرح المعنى على وفق منظوره المعرفي؛ وهذا ما نقرأه في نصه الذي مدح به سيف الدولة الحمداني:

((وَمَا قَتل الأَحْرارَ كالعفْوِ عَنْهمُ وَ مَنْ لَكَ بِالحُرِّ الذِي يَحْفَـــظُ اليَدَا

إِذَا أَنْتَ أكْرَمْتَ ٱلْكَرِيْمَ مَلَكْتهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا مُضِرٍّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى))[٤٠]

يتضح من الأبيات السابقة كيف أفاد المتنبي من التراث وكيف استوعبه فما كان منه إلا أن ((جمع بين تجاربه وتجارب القدماء))[٤١] وتوظيفها بما يلائم قدراته الشعرية وموهبته الفنية في إعادة تشكيل معاني النصوص القديمة واخراجها في شكل جديد.

وفي نص آخر للإمام علي (ع) يقول فيه: ((**قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غِيْرَتِهِ**))[٤٢] ففيه يشير إلى ان كل إنسان إنما ينال حظه على حسب طاقته وهمته، وعمله يكون على وفق قدراته.وقد أفاد المتنبي من معنى هذا النص ووظفه في أكثر من موضع من شعره ذلك انه ((لم يكن بالشاعر الذي يقف أمام تراث أسلافه وقفة العابد الطائع؛ يكرر معانيهم ويردد أفكارهم في جمود وثبات، ولكنه سار في طريق التجديد والابتكار إلى الأمد الذي اعيا غيره واحفظ سواه وخلَّد ذكراه))[٤٣]وإنَّما عرف كيف يفيد من المعاني والأفكار التي طرحها من سبقوه وأعاد بناءها بشكل يكاد يكون جديدا؛ حتى انها باتت تحسب له؛ فاذا ما قرأنا نص الإمام السابق يتبادر إلى الذهن قول المتنبي :

((عــلَى قَدْرِ أهل العَزْمِ تأتِي العَزَائِمُ وَ تَأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وَ تَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيْرِ صِغَارُها وَ تَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيْمِ العَظَائِمُ))[٤٤]

فكان نصه مطابقا لنص الامام علي (ع) في الاشارة إلى معنى النص ومضمونه؛ وهو ((على قدر همة الطالب يكون سعيه))[٤٥]. هذا ولم تقف إفادة المتنبي من معنى نص الإمام (ع) السابق في هذا الموضع فحسب؛ وإنما نجده يستلهمه في موضع آخر عارضا إياه في صورة جديدة مختزلة نص الإمام من خلال توظيف الأساليب البلاغية في رسم صورته الجديدة ؛ مستعملا التشبيه في رسم المعنى وعرضه بشكل مغاير عمَّا عرضه في النص السابق؛ وهذا ما نقرأه في قوله:

((وَكُلُّ طَرِيْقٍ أَتَاهُ الفَتَى عَلَى قَدْرِ الرِّجْلِ فِيْهِ الخُطَا))[٤٦]

لقد كشف لنا المتنبي في ذلك عن واحدة من نقاط قوته وعظمة شعره؛ وهو أنه نهل من مورد عذب؛ فكان أن تدفق على لسانه حاملا معه هذه العذوبة وهذا النقاء؛ وهذا ما يميز حكم المتنبي. ولنا _ إذا جاز التعبير _ وقفة أخرى مع نص آخر من نصوص المتنبي تشربت معانيه نصوص الامام علي (ع) ومعانيه؛ وهو قوله :

((يَسْتَصْغِرَ الخَطَرَ الكَبِيْرَ لِوفْدِهِ وَ يَظُنُّ دَجْلَةَ لَيْسَ تَكْفِي شَارِبا))[٤٧]

حيث نلحظ مرجعية هذا النص تعود إلى قول الامام (ع) في وصف المتقين حين لايرضون من أعمالهم بالقليل حتى انهم يستصغرونها وينسبونها إلى القلة والتقصير في مقابل عظمة الخالق وكرم عطاياه؛ حيث يصفهم بقوله: ((**لا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ ٱلْقَلِيْلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرونَ ٱلْكَثِيْرَ**))[٤٨]. فقد نقل المتنبي وصف الامام علي (ع) للمتقين إلى وصف ممدوحه وكرمه؛ وذلك بان أعاد بناء النص من خلال تحوير بعض المفردات واضافة أبعاد جديدة للمضمون؛ في محاولة منه لإخفاء النص ومعالمه عن أعين القارىء والمتلقي.

وهذا الكلام يصدق أيضا على قوله :

((**وَ كَيْفَ يَتُمُّ بَأسُكَ فِي أُنَاسٍ تُصِيْبُهُم فَيُؤلِمُكَ المُصَابُ**))[٤٩]

الذي يماثل نص الإمام علي (ع) ((لمّا مرَّ على طلحة وعبد الرحمن بن عتاب وهما قتيلان يوم معركة الجمل : (**أمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٍ قَتْلَى تَحْتَ بُطُوْنِ ٱلْكَوَاكِبِ**)))[٥٠]. نلحظ في هذا النص كيف أفاد المتنبي من معناه مستعملا اسلوب التعجب إلى جانب استعمال بعض الألفاظ في مقابل ألفاظ الامام علي (ع)؛ كما في(يؤلمك المصاب) في مقابل (أكره أن تكون ...).

ولم تقف حدود أصالة المتنبي وابداعه في توظيف الاساليب البلاغية واللغوية في اخفاء معاني الامام علي (ع) ونصوصه؛ وانما نلحظ أيضا محاولته شرح هذه المعاني من خلال تمطيطها _ اذا جاز لنا التعبير_ وذلك باكسائها ألفاظاً جديدة؛ وبذلك تخرج بحلة جديدة تتلاءم وطبيعة العصر والموضوع الذي يتناوله الشاعر؛ كما في قوله :

((**وَ كُلُّ ٱمْرِئٍ يُولِي الجَمِيْلَ مُحَبَبٌ وَ كُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ ٱلْعِزَّ طَيِّبُ**))[٥١]

الذي استقى معناه من قول الامام (ع): ((**خَيْرُ ٱلْبِلادِ مَا حَمَلَكَ**))[٥٢]في اشارة منه إلى أن أهمية المكان أو الوطن لا تكمن في موقعه الجغرافي بقدر ما يكون بما يحمله من مقومات العيش الكريم للإنسان. والقارىء لهذين النصين الشعريين يدرك ان صورة المعنى تكاد تكون واحدة _ إن لم تكن _ وإن اختلفت في شكل العرض وطريقة الإظهار؛ وبذلك ندرك المرجعية التراثية والفكرية التي اعتمدها المتنبي في التعبير عن معانيه ورسم صوره تلك الصور التي استمد عناصرها من بيئته التي عاشها سواء الفكرية والثقافية وحتى الحضارية والاجتماعية . فكانت نصوص الامام علي (ع) بمثابة التراث العام المشترك الذي بمقدور الشعراء والادباء والكتّاب الافادة منه والاستسقاء من نبعه. وهنا تكمن عبقرية المبدع واصالته في قدرته على النهل والارتشاف من هذا النبع وتوظيفه بشكل يتلاءم مع منجزه الفكري والابداعي. وهذا ما لمسناه عند المتنبي؛ حيث يقول :

((**تَمَلَّكَها الآتِي تَمَلّكَ سَالِبٍ وَفَارَقَها المَاضِي فِرَاقَ سَلِيْبِ**))[٥٣]

نلحظ ان العكبري شارح ديوانه يشير إلى المصدر الذي استقى منه معناه؛ حيث يقول في شرحه لهذا البيت: ((يريد أن الوارث الذي يملك الأرض كأنه سالب سلب الموروث ماله والموروث كأنه سليب سُلِبَ مَاله. وهو مأخوذ من قولهم في الموعظة: (**إن ما في أيديكم من أسلاب الهالكين، وسيتركها الباقون كما تركها الأولون**). وهذا من نهج البلاغة))[٥٤] ؛ وهناك نص آخر للإمام (ع) يحمل المعنى ذاته؛ وهو قوله: ((**على أثر الماضي ما يمضي الباقي**))[٥٥] ومما لا يخفى أن الشاعر قد اطلع على هذين النصين فكان أن نسج على منوالهما نصا ثالثا يحمل المعنى ذاته، ولكن باسلوبه الشعري المميز .

ولنا وقفة أخرى مع الشاعر وهو ينهل من معين الإمام ويغذي رافده المعرفي والإبداعي؛ فاذا كان الامام (ع) قد قال: ((**اَلْقَلْبُ مُصْحَفُ اَلْبَصَرِ**))[٥٦] أي ان ((ما يتناوله البصر يحفظ في القلب كأنه يكتب فيه))[٥٧] نجد ان المتنبي يعكس المعنى بأن يجعل العيون تشير إلى ما تخفي الصدور والقلوب؛وذلك في قوله :

((**يُخْفِي العَدَاوَةَ وَهْيَ غَيْرُ خَفِيّةٍ نَظَرُ العَدُوِّ بِمَا أسَرَّ يَبوحُ**))[٥٨]

وكأنه بذلك ينطلق من رؤية مفادها أنَّ ((النص الجيد هو النص المحرّك والباعث على التأمل والنظر))[٥٩]. وهذا ماعمله المتنبي عندما قام بعملية تشرب نص الإمام (ع) السابق وامتصاصه ثم إعادة انتاجه بشكل معاكس بما يخدم الغرض الشعري والحدث التاريخي الذي ينظم من أجله؛ فإذا كانت الصورة الأولى تشير إلى أنَّ العين أو حاسة البصر هي المصدر الرئيس لاكتساب المعرفة والاحساس بالاشياء من ناحية الجمال والقبح؛ والعاطفة الايجابية أو السلبية؛ فان النص الثاني جاء ليرسم لنا صورة عكسية للأولى عندما جعل من النظر أو العين مرآة تعكس ما تخفي القلوب من العواطف والمشاعر والأحاسيس، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه ((التأثر العكسي))[٦٠] أي ان الشاعر يقوم بعملية امتصاص للنص الابداعي ثم إعادة تشكيله في إطار بنية جديدة مغايرة لصورته الأولى أو معكوسة عنها؛ بمعنى أن يكون النص الثاني مضاداً للنص الأول. وهذا ما لمسناه في نص المتنبي الذي لم يكن وحيدا ولا مفردا؛ وإنما هناك نص آخر تناقض فيه الشاعر مع معنى نص الإمام (ع)؛ فاذا كان الإمام قد قال في معرض نصحه وارشاده: ((**إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيْمَاً فَتَحلَّمْ، فَإِنَّه قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ، إلاّ أَوْشَكَ أَنْ يَكُوْنَ مِنْهُم**))[٦١] نلحظ أن المتنبي – الذي لا ننكر اطلاعه وتأثره بهذا النص– يرفض هذه الفكرة أو هذا المعنى ويخالفه بقوله :

((**وَإِذا الحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِيْ طِبَاعٍ لَمْ يُحلِّمْ تَقَدُّمُ المِيْلادِ**))[٦٢]

وكأنه يرد على معنى نص الإمام (ع) الذي يشير فيه إلى ان الحلم إذا لم يكن طبيعة أو غريزة يمكن أن يكون تطبعا واكتسابا من خلال المعاشرة والتشبه بمن يمتلك هذه الصفة. على حين أنكر المتنبي هذا المعنى وناقضه بان ذكر ان الحلم لا يكون الاّ عن الطبع والغريزة وانه لا تنفعه المعاشرة ولا تقدم العمر،فقد يكون الانسان صغير السن و يوصف بالحلم في حين أن هناك من تقدم به العمر أو (الميلاد) ويفتقر إلى هذه الصفة. ونحن إذا ادركنا ان ((الابداع انطلاقا من العدم محال))[٦٣] ادركنا أصالة فن المتنبي الشعرية

وموهبته الإبداعية التي كان أحد روافدها نصوص الامام علي (ع) الخصبة والثرية بالمعاني إلى جانب الالفاظ؛ وهذا مانجده في نص ثالث حيث نقرأ :

((**واُسْتَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقائِهِ فَلَّما ٱلْتَقَيْنَا صَغَّرَ الخَبرَ الخُبْرُ**))[٦٤]

ندرك التقارب المعنوي بينه وبين قول الامام (ع): ((**وَكلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ ٱلْعِيَانِ ٱلسُّمَاعُ، وَمِنَ الغَيْبِ ٱلْخَبَرُ**))[٦٥] ذلك ان كلا النصين المؤثر والمتأثر حملا من التقارب المعنوي ما لايمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ بمعنى لا يمكن إنكار المؤثر وجعله بعيداً عن دائرة الأثر الذي يكاد يكون واضحا في نص المتنبي .

وإذا ما قرأنا قول المتنبي :

((**ذكِيٌّ تَظَنِّيهِ طَلِيْعَةُ عَيْنِهِ يَرَى قَلْبُهُ فِي يَوْمِهِ مَا تَرَى غَدَا**))[٦٦]

فإننا نلحظ افادته من قول الامام علي (ع) وتأثره به؛ حيث يقول: ((**ٱتَّقُوْا ظُنُونَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ، فَإِنَّ الله تَعَالى جَعَلَ ٱلْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ**))[٦٧]فالذي يتمعن في قراءة النصين السابقين يجد ان الإمام قد أشار إلى بعض صفات المؤمنين وهو إعمال الظن، وقدرتهم على استباق الاحداث والتنبؤ بها قبل وقوعها لما أكرمهم الباري عز وجل من إجراء الحق على ألسنتهم. من هذا المنطلق ندرك كيف ان المتنبي قد أفاد من هذا المعنى ووظفه في مدح ممدوحه من خلال حصر هذه الصفة فيه وقصرها عليه. في حين ان نص الامام (ع) كان شاملا عاما جميع المؤمنين؛ وهذا ما توضحه اضافة (ال) إلى (مؤمنين) لتشمل عموم الجنس على حين جاء نص المتنبي قاصرا صدق الحدس أو صحة الظن على ممدوحه الذي وصفه بالذكاء فقال: ((هو لصحة ذكائه ولصحة ظنه إذا ظنَّ شيئا رآه بعينه لامحالة))[٦٨]وهذا إنما يكشف لنا عن أصالة المتنبي وابداعه في قدرته على تضمين نصوصه معاني سابقيه والتأثر بها ومحاولة إخراجها بشكل جديد مخفيا المنبع الذي استقى منه معناه ووظفه في عمله؛ أو نصه الشعري؛ وهذا ما نتلمسه في معنى النص الذي جاءت فيه لفظة (تظنيه) لتفتح الافق إلى الرافد الابداعي لنصه ولتتوافق مع لفظة الامام (ع) (ظنون). وهذا يكشف لنا ان النص ((الجديد هو إعادة لنصوص سابقة لا تعرف إلا بالخبرة والتدقيق، فالعودة إلى الماضي واستحضاره من أكثر الامور فعالية في عملية الابداع))[٦٩]وهذا مايمكن ان ندركه ونحن نقرأ قول المتنبي :

((**وَجَائِزَةٌ دَعْوَى المَحَبَةِ وَٱلْهَوَى وَ إِنْ كَانَ لاَ يَخْفَى كَلامُ المُنَافِقِ**))[٧٠]

حيث لايمكن انكار المرجعية الفكرية فيه وتأثرها في نص الإمام علي (ع) الذي يقول: ((**مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئَاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ**))[٧١]. فقد تطابق قول المتنبي مع نص الامام (ع) الذي يشير فيه إلى ان الإنسان مهما حاول أن يخفي مشاعره أو عواطفه أو أحاسيسه وحتى علمه _ إن جاز لنا_ فان لسانه يفضحه بما يجري عليه من فلتات تشير إلى ما يحاول كتمانه؛ وبما يرتسم في وجهه من ملامح تشير إلى ما يحاول اخفاءه . وبهذا المعنى أيضا نطق المتنبي الا انه قصره على المنافق الذي يحاول ان يظهر للآخرين

خلاف ما يبطن الا انه سرعان ما يفضحه كلامه. وإذا كان كلام الامام (ع) عاما يشمل الايجابي والسلبي من الامور المخفية فان نص المتنبي وقف عند الجانب السلبي من المشاعر والعواطف؛ ويبدو إن طبيعة الغرض الذي نظم من اجله والموضوع الذي كان يقصده كان السبب في هذا الإقتصار وهذا التأثر. وعلى هذا يبدو ان الشاعر لم يكن غافلا عن مصدره الذي استقى منه المعنى ووظفه بما يلائم موضوعه؛ فهو إعادة انتاج لنص قديم على وفق رؤية جديدة تناسب الحدث التاريخي الذي قيل من أجله النص؛فالمسألة إذاً هي مسألة عموم وخصوص. فنص الإمام (ع) السابق يتحدث بشكل عام ويرسم صورة مشتركة للجميع، في حين خصت صورة المتنبي جانبا عاطفيا فقط هو (النفاق). وبذلك يكون قد أثبت جزئية من جزئيات النص المرجعي. وفي نص آخر نقرأ قوله :

((**ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُوْلُ العَيْشِ إِشْغَالُ**))[٧٢]

حيث ينقل في هذا النص معنى خلقي وانساني ربما عرفه الناس وأدركوه غير إنَّ مايميزه هو الصياغة اللفظية التي اعتمدها الشاعر في الوقوف عند هذا المعنى؛ فهو يشير فيه إلى ان للمرء حياة مادية تنتهي بانتهاء اجله؛ وأخرى روحية مخلدة تمثل عمره الثاني؛ وهذه الأخيرة إنما تبقى من خلال اعماله الطيبة ((وجميل مساعيه، وما يخلده من كرمه ومعاليه))[٧٣]. وقد تنبه شارح ديوانه إلى ان هذا النص (مأخوذ من كلام حكيم)[٧٤]؛ ولو رجعنا إلى نصوص الامام علي (ع) وأقواله الحكمية في وصفه للعلم والعلماء ونقرأ قوله : ((**بِهِ – أي العلم – يَكْسِبُ ٱلإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيْلَ ٱلأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ..... هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَٱلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَابَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُم مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُم فِي ٱلْقُلُوْبِ مَوْجُودَةٌ**))[٧٥]، نلحظ ان المتنبي وهو يبني نصوصه الإبداعية لا يخرج عن اطار تكوينه المعرفي ومرجعياته الثقافية ((فنصوصه الأدبية عبارة عن تراكمات ثقافية تنمو في محيط التلاحم المعرفي المتشابك، مما يجعل النص الأدبي بناءً متعدد القيم والأصوات، تتوارى خلف كل نص ذوات أخرى غير ذات المبدع من دون حدود أو فواصل. ومن ثم فالنص الجديد هو إعادة لنصوص سابقة لا تعرف إلاّ بالخبرة والتدقيق))[٧٦] وهذا ما أدركه شارح ديوانه من قبل .

ومن أبيات الحكم والأمثال التي صاغها المتنبي نقرأ قوله :

((**إِذا قِيْلَ رِفْقاً قَالَ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ**))[٧٧]

وفيها يتحدث عن ضرورة مراعاة وضع الاشياء في موضعها الصحيح والا ستعود على الانسان بالضرر؛ ذلك ان (للحلم) مواضع يجمل فيها ويحمد فاعلها؛ في حين أنَّه في مواضع أخرى يكون (جهلا) عندما يوضع في غير محله وعند غير مستحقه. ففي الحرب مثلا لايجوز استعمال الرفق فيها وانما لابد من القوة والبطش والفتك بالاعداء؛ في خلاف حالة السلم. وعلى الانسان العاقل أن يعرف الأوقات المناسبة لاستخدام الحلم كما يعرف اوقات استعمال الشدة؛ لان استعمال الحلم في موضع الشدة أو العكس يُعد جهلا أو ضعفا أو خرقا؛ كما ذكر ذلك الامام علي (ع) : ((**إذا كَانَ الرِّفْقُ خَرْقاً كَانَ الخرْقُ رِفْقاً**))[٧٨] أي ((إذا كان المقام يلزمه

العنف يكون ابداله بالرفق عنفا، ويكون العنف من الرفق، وذلك كمقام التأديب واجراء الحدود))[٧٩]. وقارىء نص المتنبي يلحظ أنه حاول أن يحافظ على معنى نص الامام إلا انه رسمه بصورة جديدة من خلال اعطائه أبعادا جمالية من خلال تمكنه من الأساليب اللغوية جاءت ((مصاغة في مظهر القدوة أو العبرة التي لا تلقى على الناس إلقاء وعظ يرغّب ويرهّب ويعد ويزجر؛ وإنما يبرزها الشاعر لهم على أنها من مكتسبات تجربته في الحياة ومن نتائج تجارب أخرى مماثلة لتجربته))[٨٠] وبذلك عرض المعنى في صورة جديدة حاول من خلالها إخفاء الرافد الذي استقى منه معناه. وهنا يكمن ابداع المتنبي في قدرته على خلق الأعمال الفنية المتميزة من خلال تشربه لكل ما هو موروث وإعادة اخراجه بشكل جديد مناسب للمرحلة التاريخية التي يعيشها.

هذا ولم يقف عطاء الامام علي (ع) الفكري والثقافي عند هذا الحد وإنما نجده متدفقا معطاءً في نصوص أخرى؛ فاذا كان الامام قد قال : ((**لَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَقْوَى، وَكَيْفَ يَقِلُ مَا يُتَقَبَّلُ**))[٨١] نجد ان المتنبي قد وظف النص في المدح؛ فاذا كان الامام قد تحدث عن العمل مع التقوى وانه أكثر نفعا وبقاء وإن كان قليلا، نلحظ ان المتنبي قد نقل المعنى إلى موضع آخر ، فقد أبدل العمل بالجود والعطاء؛ وان كان العمل يدخل أيضا في باب العطاء إلا انه يكون بشكل غير مباشر؛ وكأنه بذلك ينفي جزئية من جزئيات النص المرجعي الموروث ويحاول أن يعوضها بجزئية أخرى تتلاءم والسياق الذي يتحدث فيه؛ فيقول في معرض مدحه لسيف الدولة :

((**وَجُوْدُكَ بِالمُقامِ وَلَوْ قَلِيلا فَمَا فِيْمَا تَجودُ بِهِ قَلِيْلُ**))[٨٢]

والمتمعن في النصين يدرك العامل المشترك بينهما؛ وهو إن ما يتقبل من الأعمال الجيدة لا توصف بالقلة مهما كانت؛ فالتقوى مع الأعمال والإخلاص فيها تجعلها مقبولة وإنْ قلَّت، غير أن المتنبي قصر هذه الصورة على ممدوحه؛ فمهما كان عطاؤه وجوده فانه مقبول حتى وإن كان قليلا يكفي انه منه. لقد افاد المتنبي في معنى نصه من موضوعة المواد التي بنى الامام عليها نصه؛ فكانت بمثابة النبع الذي استقى منه شاعرنا مادته الأولية واعاد بناءها على وفق رؤية شاعرية وموهبة متميزة وبذلك عرف كيف يوظف المعنى في شعره ويكسيه حلة جديدة وهذا مايميز حكم المتنبي وشعره ولاسيما إذا ادركنا ان عملية الابداع ماهي الا العودة ((إلى الماضي واستحضاره))[٨٣] بشكل مؤثر وفعال بما تمتلكه من ((القدرة على الاسهام في خلق القيم الناجعة أو الفاضلة للسلوك الاجتماعي لا من باب حمل الناس عليها قسريا يعتمد الزجر أو الإثابة، وإنما من باب اظهارها في مظهر المثال والقدوة التي إذا فازت بالهوى والقبول واعتنقها الناس واصبحت قواعد اختاروها اختيارا وأجمعوا عليها إجماعاً وتعاقدوا على تبجيلها اعتقادا لا وجه للالزام فيه))[٨٤]وإنما يكون بشكل مؤثر وفعال في نفس القارىء أو المتلقي مما يشكل عنصر جذب وتشويق إليه. وبذلك يستطيع الشاعر المبدع أن يخترق حدود التراث ويستوعبها ومن ثم يقوم بعملية صهر وامتزاج بين هذا الموروث وبين تجاربه الحياتية وموهبته الشعرية مستغلا في ذلك قدراته الإبداعية ومهاراته الشعرية وملكته اللغوية في إخراج هذا الموروث بشكل جديد وعصري. ومن هنا فقد استطاع المتنبي ان يظهر ((براعة في توظيف

التراث ....حيث طبعها بطابعه الخاص وحمَّلها شحنات دلالية خاصة تعبر عن رؤاه الشعرية، وصاغها في أجمل صياغة، مما اسهم في ذيوع هذه الأبيات وانتشارها))[٨٥]إلى جانب ذلك فقد كانت النصوص التي استقى من معينها نصوصا ثرية معطاءة خصبة تحمل بين طياتها العديد من المعاني الإنسانية التي لاتقيد بمكان ولا تحد بزمان؛ فهي نصوص خالدة على مر الدهور والأعوام لما تحمله من شحنات عاطفية ودلالات عقلية ورؤى منطقية إلى جانب تمتعها بألفاظ جزلة تحمل مقومات الفصاحة العربية ؛ فكانت بذلك منبعا للعلم والأدب استقى منها الشعراء ونهلوا من مختلف مشاربها؛ فكانت خير منهل وأعذب مورد الا وهي نصوص الامام علي (ع) التي كانت معروفة وشائعة ومتداولة في اوساط العلماء والشعراء والأدباء والكتّاب حتى جاء الشريف الرضي وجمعها في كتاب تحت عنوان (نهج البلاغة).

الخاتمة

لقد كشفت لنا نصوص المتنبي عن موهبة مبدعة في خلق الأعمال والنصوص الفنية والأدبية المتميزة التي تعبر عن أصالة مبدعها، وذلك من خلال توظيفها للتراث الانساني المتمثل بنصوص الامام علي (عليه السلام) التي كانت بمثابة الرافد الابداعي لنصوصه الأدبية لما تحمله من خصب في الألفاظ وعمق في المعاني ومتانة في الصياغة؛ كل ذلك مما جعلها نبعا صافيا يستقي منه الشعراء ومنهم شاعرنا المتنبي الذي تأثر بها وأفاد منها في خلق تجربته الشعرية بما يتلاءم وموهبته الابداعية.

ويحسن بنا هنا أنْ نفرق بين النبع الذي هو أصل التيار المؤثر، والأثر الذي هو الغاية التي ينتهي عندها التيار عند المصب؛ أي ان ندرك ان النبع هو الذي يزود الروافد أو هو الجزء الاساس للابداع وهذا ما وجدناه في أقوال الامام علي (عليه السلام) ونصوصه .

فقد اتخذ هذا الأثر أشكالاً متعددة منها ماكان من جانب اللفظ ومنها ماكان من جانب المعنى، وفي جانب المعنى نلحظ تنوعا في هذا المؤثر مما أخرج أثراً يكاد يكون مختلفا عن المؤثر فمرة كان الإتباع؛ وأخرى السير بمحاذاة المؤثر وثالثة بنقضه وأخرى بقلبه وعكسه ؛ في حين نلحظ في مرة أخرى الوقوف عند جزئية من جزئيات المعنى، وبذلك تعددت الإفادة من النبع المؤثر إلا أنها جميعاً شكلت رافداً معرفياً وابداعياً في شعر المتنبي مدته بكثير من الألفاظ والمعاني والصور الابداعية .

وبذلك شكل نهج البلاغة رافدا معرفيا وابداعيا لايقل تأثيرا عن الروافد الابداعية الأخرى في شعر المتنبي؛ هذا من جانب.

ومن جانب آخر تكشف لنا هذه الروافد أن نصوص الإمام علي (عليه السلام) كانت معروفة ومتداولة قبل القرن الخامس الهجري حيث الشريف الرضي وجهوده في جمع هذه النصوص وتدوينها .

هوامش البحث

(١) التأثير والتقليد/ أوليريش فايستنتاين . فصول مجلة النقد الأدبي : الأدب المقارن/ الجزء الأول، المجلد الثالث، العدد الثالث: ابريل/ مايو / يونيه ١٩٨٣م . ص : ١٩.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر / الإمام أبي الحسن بن علي المسعودي المتوفى ٣٤٦ه _ ٩٧٥م؛ اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي. بيروت : المكتبة العصرية. الطبعة الأولى: ١٤٢٥ه _ ٢٠٠٥م. ج٢: ٣٢٦.

(٣) الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي اصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف/ الدكتور نوري جعفر، بغداد: مطبعة الزهراء ١٩٧٦م. ص: ١٥٠.

(٤) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث / د. محمد عبد الرحمن شعيب. مصر: دار المعارف ١٩٦٤م. ص: ١٩٤ .

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي ؛ بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه : مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . بيروت: دار الفكر : ١٤٣٢ه _ ٢٠١٠م .ج١٢٩/٣ .

(٦) م.ن

(٧) نهج البلاغة للإمام علي : شرح الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ؛ أشرف على تحقيقه وطبعه عبد العزيز سيد الأهل . بيروت : دار الاندلس الطبعة الثانية : ١٣٨٢ه _ ١٩٦٣م . ص: ٢٤٥.

(٨) ديوانه : ج١ / ٣٥٦ .

(٩) نهج البلاغة : ج٢/ ٢٢١.

(١٠) التناص والموشحات الادبية / غنية بوقرة ؛ سمية بابا . المدية ٢٠٠٩م . ص: ٢٣ .

(١١) ديوانه : ج٣ / ٦٤ .

(١٢) ديوانه شرح البيت : ج٣ / ٦٤ .

(١٣) حركة التراث في شعر أبي تمام والمتنبي / نداء محمد عز الدين محمود الحرباوي. جامعة الخليل : ١٤٣٦ه _ ٢٠٠٩م . (رسالة ماجستير) . ص: ٢٥_٢٦ .

(١٤) التكاثر : ١- ٢ .

(١٥) نهج البلاغة : ج٣/ ٤١٦ . هام : جمع هامة: أعلى الرأس. تستثبتون: أي تحاولون اثبات ما تثبتون من الأعمدة والأوتاد والجدران في أجسادهملذهابها ترابا وامتزاجها بالأرض التي تقيمون فيها. ورويت ((تستنبتون)) . ترتعون: تأكلون وتتلذذون بما لفظوه أي طرحوه وتركوه .

(١٦) حركة التراث في شعر أبي تمام والمتنبي : ٢٦.

(١٧) ديوانه : ج٣ / ١٨ .

(١٨) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب وساقط شعره/ من كلام أبي علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب؛ تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم. بيروت: دار صادر ١٣٨٥ه _ ١٩٦٥م . ص: ١٤٣.

(١٩) ديوانه : ج٣/ ٣٩٦.

(٢٠) نهج البلاغة : ج٤ / ٥٠٥ .

(٢١) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث / ١٩٧ .

(٢٢) م . ن : ٢٩٧ .

(٢٣) م . ن : ١٩٤.

(٢٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب / تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي ١٠٣٠ _ ١٠٩٣م؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون؛ القاهرة: مكتبة الخانجي . ج٢/ ١٣٧.

(٢٥) المتنبي بين ناقديه : ١٢ .

(٢٦) التأثير والتقليد : ١٩ .

(٢٧) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث : ٢٣٥ .

(٢٨) ديوانه : ج٤/١٧٤ .

(٢٩) نهج البلاغة : ج٤/ ٥٧٩

(٣٠) ديوانه : ج١ / ٢٨٨ .

(٣١) شرح البيت م . ن .

(٣٢) نهج البلاغة : ج٤ / ٥٧٥ .

(٣٣) ديوانه : ج١/ ٢٧٦ .

(٣٤) م . ن : هامش شرح البيت .

(٣٥) نهج البلاغة : ج٤/ ٦٣١ .

(٣٦) المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب (تلقي القدماء لِشعره) / الدكتور حسين الواد بيروت: دار الغرب الإسلامي . الطبعة الثانية : ٢٠٠٤م . ص: ٣٢٤.

(٣٧) المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته/ د. جلال الخياط. بغداد : دار الحرية للطباعة ١٣٩٦ه _ ١٩٧٦م . ص: ٥١ نقلامن مجلة المقتطف / المجلد ٨٨؛ القاهرة ١٩٣٦. ص: ٧٦.

(٣٨) شرح نهج البلاغة / تأليف ابن أبي الحديد المعتزلي ؛ تحقيق محمد ابراهيم . بغداد: دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى ٢٠٠٧م .ج٢٠/ ٢٨٦ .

(٣٩) الرحمن : ٦٠ .

(٤٠) ديوانه : ج١/ ٢٨٨.

(٤١) حركة التراث في شعر أبي تمام والمتنبي : ٢٥ .

(٤٢) نهج البلاغة : ج٤ / ٥٧٤.

(٤٣) المتنبي بين ناقديه : ١٢٥.

(٤٤) ديوانه : ج٣/ ٣٧٨_ ٣٧٩.

(٤٥) م.ن هامش : ج١ / ٤٢ .

(٤٦) م. ن : ج١ / ٤٢.

(٤٧) م.ن : ج١ / ١٢٥ .

(٤٨) نهج البلاغة : ج٣ / ٧٣٨.

(٤٩) ديوانه : ج١ / ٧٩.

(٥٠) نهج البلاغة : ج٣ / ٤١٤.

(٥١) ديوانه : ج١ / ١٨٣.

(٥٢) نهج البلاغة : ج٤ / ٦٥٥.

(٥٣) ديوانه : ج١ / ٥٠ .

(٥٤) م . ن : لم أعثر على هذا النص في نهج البلاغة . وهذا يؤكد ان نصوص الامام علي (ع) كانت معروفة ومشهورة قبل عصر الشريف الرضي . وان نهج البلاغة لم يضم كل أقوال الامام وخطبه وكتبه ورسائله . وهذا ما اعترف به الشريف

الرضي في مقدمة كتابه واكد عليه بقوله : ((ولا أدعي _مع ذلك_ أني احيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام حتى لايشذ عني منه شاذ، ولا يَنِدَّ نادّ. بل لا أبعد أن يكون القاصر عني فوق الواقع إلي ....)) نهج البلاغة : ج١/ ٢٢ .

(٥٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٧/ ٨٣ .

(٥٦) نهج البلاغة : ج٤/ ٦٤٩.

(٥٧) م . ن (هامش)

(٥٨) ديوانه : ج١ / ٢٥٣ .

(٥٩) استقبال النص عند العرب/ د. محمد رضا مبارك. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة العربية الأولى ١٩٩٦م. ص: ١٨٣ .

(٦٠) الأدب المقارن / محمد غنيمي هلال . ص: ٢١ .

(٦١) نهج البلاغة : ج٤/ ٤٠٦ .

(٦٢) ديوانه : ج٣ / ٣٣ .

(٦٣) التأثير والتقليد : ٢٣ .

(٦٤) ديوانه : ج٢ / ١٥٥ .

(٦٥) نهج البلاغة : ج٢/ ٢٢١ .

(٦٦) ديوانه : ج١ / ٢٨٢ .

(٦٧) نهج البلاغة : ج٤/ ٦٢٨.

(٦٨) ديوانه : ج١/ ٢٨٣ (هامش)

(٦٩) التنـــــــــــــاص في شعر المتنبي/ ابراهيم عقلة جوخان ؛(اطروحة دكتوراه) جامعة اليرموك: ١٤٢٧ه – ٢٠٠٦م . ص: ١٠ .

(٧٠) ديوانه : ج٢/ ٣٢١.

(٧١) نهج البلاغة : ج٤/ ٥٦٩.

(٧٢) ديوانه : ج٣/ ٢٨٨.

(٧٣) م . ن (هامش)

(٧٤) م . ن

(٧٥) نهج البلاغة : ج٤ / ٥٩٤.

(٧٦) التناص في شعر المتنبي : ١٠ .

(٧٧) ديوانه : ج٣/ ١٨٧ .

(٧٨) نهج البلاغة : ج٣/ ٤٨٦.

(٧٩) م . ن . (هامش) .

(٨٠) المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب : ٣٣٣ .

(٨١) نهج البلاغة : ج٤/ ٥٨١ .

(٨٢) ديوانه : ج٣/ ٣ .

(٨٣) التناص في شعر المتنبي : ١٠ .

(٨٤) المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب : ٣٣٣.

(٨٥) حركة التراث في شعر أبي تمام والمتنبي : ٢٨٥ .

قائمة المصادر والمراجع

_ **القرآن الكريم .**

_ الأدب المقارن / محمد غنيمي هلال .

_ استقبال النص عند العرب/ د. محمد رضا مبارك. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة العربية الأولى ١٩٩٦م.

_ الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي اصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف/ الدكتور نوري جعفر، بغداد: مطبعة الزهراء ١٩٧٦م.

_ التناص في شعر المتنبي / ابراهيم عقلة جوخان ؛ جامعة اليرموك: ١٤٢٧ه – ٢٠٠٦م . (اطروحة دكتوراه)

_ التناص والموشحات الادبية / غنية بوقرة ؛ سمية بابا . المدية ٢٠٠٩م

_ حركة التراث في شعر أبي تمام والمتنبي / نداء محمد عز الدين محمود الحرباوي. جامعة الخليل: ١٤٣٦هـ _ ٢٠٠٩م . (رسالة ماجستير) .

_ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب / تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي ١٠٣٠ _ ١٠٩٣م؛ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون؛ القاهرة: مكتبة الخانجي .

_ ديوان أبي الطيب المتنبي ؛ بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه : مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . بيروت: دار الفكر : ١٤٣٢هـ _ ٢٠١٠م .

_ الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب وساقط شعره/ من كلام أبي علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب؛ تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم. بيروت: دار صادر ١٣٨٥هـ _ ١٩٦٥م .

_ شرح نهج البلاغة / تأليف ابن أبي الحديد المعتزلي ؛ تحقيق محمد ابراهيم . بغداد: دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى ٢٠٠٧م .

_ فصول مجلة النقد الأدبي : الأدب المقارن/ الجزء الأول، المجلد الثالث، العدد الثالث: ابريل/ مايو / يونيه ١٩٨٣م. التأثير والتقليد/ أوليريش فايستتاين .

_ المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث / د. محمد عبد الرحمن شعيب. مصر: دار المعارف ١٩٦٤م.

_ المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب (تلقي القدماء لِشعره) / الدكتور حسين الواد بيروت: دار الغرب الإسلامي . الطبعة الثانية : ٢٠٠٤م .
_ المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته/ د. جلال الخياط. بغداد : دار الحرية للطباعة ١٣٩٦هـ _ ١٩٧٦م . نقلامن مجلة المقتطف / المجلد ٨٨؛ القاهرة ١٩٣٦.
_ مروج الذهب ومعادن الجوهر / الإمام أبي الحسن بن علي المسعودي المتوفى ٣٤٦هـ _ ٩٧٥م؛ اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي. بيروت : المكتبة العصرية. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ _ ٢٠٠٥م.
_ نهج البلاغة للإمام علي : شرح الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ؛ أشرف على تحقيقه وطبعه عبد العزيز سيد الأهل . بيروت : دار الاندلس الطبعة الثانية : ١٣٨٢هـ _ ١٩٦٣م .